الجاحظ

ورسالته في تفضيل النطق

بقلم الدكتور

محمد عرفه حامد الغزالي

أستاذ الأدب والنقد المساعد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين

جامعة الأزهر

الجاحظ شيخ كتاب العصر العباسى بلامراء صاحب البيان والتبيين ، والبخلاء ، والحيوان ، وغيرها من المؤلفات التى خلدت مئات السنين ، ولاتزال ظاهرة الجدة ، بينة الرونق ، واضحة البهاء يقبل عليها الدارسون ، وينهل منها المتأدبون ، وهى ممتدة العطاء ، عميقة الغور ، متجددة الإفادة فسيحة الرحب والجناب .

ورسالة الجاحظ فى تفضيل النطق على الصمت التى أورد الأستاذ عبد السلام محمد هارون صدرا منها فى مجموع رسائله التى حققها فى أربعة أجزاء ، تمثل أدب الجاحظ وكتابته فى عمق الأفكار ودقة التعبير ، وجمال الأسلوب وحضور العقل ، وظهور المنطق وتضافر الأدلة التى تؤيد مايذهب إليه الكاتب من اتجاه .

وهذا البحث عرض لقدر من كلام الجاحظ ثم وقفة متأنية عنده . ودراسة للكاتب تجلى الكثير مما يتصل به وتوضح صورته ، وهى صورة نافعة لكثير من الدارسين والباحثين على السواء .

تفضيل النطق على الصمت للجاحظ

إنى وجدت فضيلة الكلام باهرة، ومنقبة المنطق ظاهرة فى خلال كثيرة، وخصال معروفة .

منها : أنك لا تؤدى شكر الله ولا تقدر على إظهاره إلا بالكلام .

ومنها : أنك لا تستطيع العبارة عن حاجتك والإبانة عن مآربك إلا باللسان . وهذان فى العاجل والآجل مع أشياء كثيرة لو ينحوها الإنسان لوجدها فى المعقول موجودة وفى المحصول معلومة وعند الحقائق مشتهرة وفى التدبير ظاهرة .

ولم أجد للصمت فضلا على الكلام مما يحتمله القياس لأنك تصف الصمت بالكلام ولا تصف الكلام به ولو كان الصمت أفضل والسكون أمثل لما عرف الآدميين فضل على غيرهم . ولا فرق بينهم وبين شىء من أنواع الحيوان وأخياف الخلق(١) فى أصناف جواهرها واختلاف طبائعها ، وافتراق حالاتها وأجناس أبدانها فى أعيانها وألوانها . بل لم يمكن أن يميز بينهم وبين الأصنام المنصوبة والأوثان المنحوته ، وكان كل قائم وقاعد ، ومتحرك وساكن ومنصوب وثابت فى شرع سواء(٢) . ومنزلة واحدة ، وقسمة متشاكلة إذ كانوا فى معنى الصمت بالجثة واحداً وفى معنى الكلام بالمنطق متباينا ولذلك صارت الأشياء مختلفة فى المعانى متوافقة الأشكال ، إذا كانت فى أشكال

---

(١) الأخياف : الضروب المختلفة فى الأخلاق والأشكال .

(٢) الشرع ، بالتحريك ويقال بالفتح أيضا : السواء يقال هذا شرع سواء . وفى الحديث : أنتم فيه شرع سواء أى متساوون .

خلقتها متفقه بتركيب جواهرها ، وتاليف أجزائها ، وكمال أبدانها ، وفى معنى الكمال متباينه عند مفهوم نغماتها ، ومنظوم ألفاظها ، وبيان معالمها وعدل شواهدها .

مع أنى لم أنكر فضيلة الصمت ، ولم أهجن ذكره إلا أن فضله خاص دون عام ، وفضل الكلام خاص وعام ، وأن الاثنين إذا أشتمل عليهما فضل كان حظهما أكثر ونصيبهما أوفر من الواحد . ولعله أن يكون بكلمة واحدة نجاة خلق وخلاص أمة .

ومن أكثر ما يذكر للساكت من الفضل ويوصف له من المنقبة أن يقال يسكت ليتوقى به عن الإثم وذلك فضل خاص بدون عام .

ومن أقل مايحتكم عليه أن يقال غبى أو جاهل فيكون فى ذلك لازم ذنب على التوهم به ، فيجتمع مع وقوع اسم الجاهل عليه ماورط فيه صاحبه من الوزر .

والذى ذكر فى تفضيل الكلام ماينطق به القرآن ، وجاءت فيه الروايات عن الثقات ، فى الأحاديث المنقولات ، والأقاصيص المرويات والسمر والحكايات ، وماتكلمت به الخطباء ونطقت فيه البلغاء — أكثر من أن يبلغ آخرها ويدرك أولها ، ولكن قد ذكرت من ذلك على قدر الكفاية ، ومن الله التوفيق والهداية .

ولم تر الصمت — أسعدك الله — أحمد فى موضع إلا وكان الكلام فيه أحمد ، لتسارع الناس إلى تفضيل الكلام ، لظهور علته ووضوح جليته ، ومغبة نفعه .

وقد ذكر الله عز وجل فى قصة إبراهيم عليه السلام حين كسر الأصنام وجعلها جذاذا ، فقال حكاية عنهم : « قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . » فكان كلامه سببا

لنجاته ، وعلة لخلاصة ، وكان كلامه عند ذلك أحمد من صمت غيره فى مثل ذلك الموضع ، لأنه عليه السلام لو سكت عند سؤالهم إياه لم يكن سكوته إلا على بصر وعلم وإنما تكلم لأنه رأى الكلام أفضل ، وأن من تكلم فأحسن قدر أن يسكت فيحسن ، وليس من سكت فأحسن قدر أن يتكلم فيحسن .

واعلم أن الكلام سبب لإيجاب الفضل ، وهداية إلى معرفة أهل الطول.

ولولا الكلام لم يكن يعرف الفاضل من المفضول ، فى معان كثيره لقول الله عز وجل ، فى بيان يوسف عليه السلام وكلامه عند عزيز مصر لما كلمه فقال : « إنك اليوم لدينا مكين أمين » . فلو لم يكن يوسف عليه السلام أظهر فضله بالكلام والإفصاح بالبيان ، مع محاسنه الموفقة ، وأخلاقه الطاهرة ، وطبائعه الشريفة ، لما عرف العزيز فضله ، ولا بلغ تلك المنزلة لديه ، ولا حل ذلك المحل منه ، ولا صار عنده بموضع الأمانة ، ولكان فى عداد غيره ومنزلة سواه عند العزيز . ولكن الله جعل كلامه سببا لرفع منزلته وعلو مرتبته ، وعلة لمعرفة فضيلته ، ووسيله لتفضيل العزيز إياه(١) .

المناسبة :

كان الجاحظ مولعا بالمحاورات والمناظرات ذلك أن انتسابه إلى علماء الكلام وإقتناعه بمذهب المعتزلة ، حتى صار إماما فيـــه وعرفت له آراء وانتسبت إليه فرقه من فرق المعتزلة تسمى الجاحظيه . كل هذا جعله يميل إلى المناظرات ، ويحتج لأشياء عديدة بالحجج التى تعلى شأنها ، وتبين فضلها ، وتشهد لها دون سواها من أشياء تنافسها ، وتطاولها فى مضمار السبق والظهور ، ثم يعود إلى تلك الحجج فينقدها ويبطلها على لسان الخصوم والمناوئين ، ويورد حجج هؤلاء الخصوم فيوضحها ويؤيدها بما يقدر عليه من برهان

---

(١) من رسالة فضل النطق على الصمت رسائله ج ٢ .

ودليل ، وهكذا يظل فى صراع عقلى وفكرى رائع بين كثير من الأشياء، لاتحسن الكلام ولاتجيد الحوار . ولم تجمعها ساحة نقاش أو جدال ، مثل الكلب والديك وقد استمرت المناظرة بين صاحبيهما مئات الصفحات فى كتابه الحيوان(١) يورد فيها الجاحظ كل مايخطر على العقل والبال من أدلة لكل منهما ويستطرد إلى الشعر والحكم والحكايات ، ثم يعود فيورد أقوال الخصم فى قوة وبأس شديدين .

ويرى بعض الباحثين المعاصرين أن المناظرة بين الديك والكلب مناظرة بين العرب والشعوبية، أما الشعوبية فرمزهم الديك الذى يرى فى قراهم ومدنهم، وأما العرب فرمزهم الكلب الذى لايفارقهم فى منازلهم ومراعيهم وليس هناك صاحب لهما، وإنما هناك الجاحظ بلسنه وقدرته الرائعة على دراسة الموضوعات وهناك العرب ، والشعوبية التى تستقذر الكلب وحيوانات الصحراء مما جعل الجاحظ يعقد مناظرة أخرى بين البعير والفيل فدائما الشعوبية تتحرش بالعرب وتهجن حياتها وكل ما اتصل بها وكأن الجاحظ أقام نفسه رصدا لهم ، وقد هاجم الجاحظ الشعوبية مرارا(٢) .

وطالما أقام الجاحظ مناظرات من هذا القبيل أو قريبا من هذا القبيل ورسالته فى تفضيل النطق على الصمت من هذا الباب ، فهو يذكر طرفى قضيته ثم يعود إلى تفضيل النطق ، ويرجح ذلك بأدلة وبراهين ، ولكنه فى الوقت نفسه يذكر أدلة من يفضل الصمت ويحتج له ثم يعود إلى تفنيدها ، والتقليل من أثرها وقيمتها .

ورسالته تلك على هيئة رسالة يرد بها على من ذكر الصمت وحث عليه فيبدأ رسالته قائلا له :

---

(١) راجع تلك المناظرة فى الحيوان جـ١ ص ٢٢٢ إلى آخر الجزء الأول والثانى كله.
(٢) العصر العباسى ص ٥٦٨ .

قد قرأت كتابك فيما وصفت من فضيلة الصمت وشرحت من مناقب السكوت ... ثم يقول : وزعمت أن اللسان من مسالك الخنا الجالب على صاحبه البلا ، وقلت إن حفظ اللسان أمثل من التورط فى الكلام ...(١) فهو يورد حجج الخصم ولكنه لا يذكر ذلك الخصم ولا يعينه مع أنه كثيرا ماعين من وجه إليهم رسائله مثل ابن أبى دؤاد وابن الزيات وغيرهما وهذا مما يرجح أنها رسالة جدل محض وأن الجاحظ صاحب الحجة فيها لطرفى الخصومة جميعا .

والجاحظ لابد أن يميل إلى جانب النطق لأنه رسالته وملكته وفخره ومعاشه جميعا ، وفى كل موقف تراه يحتج للكلام ويحث على الخطابة ويبين أثر الكتابة وفضل الكتاب والشعراء وغيرهم ويذكرهم بفخر وأعتداد ويقرن بينهم وبين رسل الله وأنبيائه فى فضيلة البلاغة والقدرة على الإفهام(٢) .

ومن هنا كان تفضيله النطق دائما حتى جعل الفصاحة والبيان سبب بعث أفضل الأنبياء وأكرم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم من العرب وجعل لسانه عربيا وأنزل عليه قرآنا عربيا ، بل عمم الجاحظ الحكم فجعل هذا مع الأنبياء جميعا فقال :

واعلم أن الله تعالى لم يرسل رسولا ولا بعث نبيا إلا من كان فضله فى كلامه وبيانه كفضله على المبعوث إليه(٣) ...

ولعل هذا يدعو أبناءنا الطلاب وسائر دارسى الأدب إلى قراءة الرسالة كلها فى تدبر وأناة .

---

(١) رسائله جـ ٤ ص ٢٢٩ وهى فى اثنتى عشرة صفحة .
(٢) عرضت لهذا المعنى بشىء من التفصيل كما سيجىء .
(٣) الرسالة ص ٢٣٧ وما بعدها .

الجاحـــظ

« ٢٥٥ — ... »

اسمه عمرو بن بحر بن محبوب وكنيته أبو عثمان ولقبه الجاحظ مولى عمرو ابن قلع الكنانى[١] . فهو كنانى بالولاء لا كنانى صليبـــة على أرجح الأقوال[٢] .

قال يموت بن المزرع : الجاحظ خال أمى وكان جد الجاحظ أسود يقال له فزارة وكان جمالا ولم تعرف سنة ولادته على التحديد ولكنه مات عام ٢٥٥ هـ وكان عمره مائة عام تقريبا وإنما لقب بالجاحظ لأن عينيه كانتا جاحظتين .

والجحوظ : النتوء ، وكان يقال له أيضا « الحدقى » لذلك قال : ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآنى استبشع منظرى فأمر لى بعشرة آلاف درهم وصرفنى[٣] .

فقد كان مشوه الخلق ـ قبيح الصورة وإن زانه العلم والأدب كما سنرى .

وعرف فى صباه شظف العيش ، وشدة الحال فقد حدثوا أنه كان يبيع الخبز والسمك بسيجان[٤] .

---

(١) معجم الأدباء لياقوت جـ ٦ ص ٥٦ مطبعة هندية ١٩٣٠ .

(٢) ضحى الإسلام جـ ١ ص ٤٠٨ طبعة سابعة .

(٣) تاريخ بغداد جـ ١٢ ص ٢١٣ ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ٦٨٠ هـ جـ ٣ ص ١٤١ تحقيق محيى الدين مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ .

(٤) معجم الأدباء ص ٥٦ وسيجان نهر بالبصرة .

ويروى أن أمه ضاقت بانهما كه فى الدرس والقراءة فطلب منها يوما طعاما فجاءته بطبق ملىء بكراريس أودعها البيت وقالت له : ليس عندى طعام سوى هذه الكراريس فذهب إلى الجامع مغتما ولقيه موسى بن عمران أحد رفاقه الأثرياء فى الدرس فسأله ما شأنك ؟ فحدثه بحديث أمه فأخذه إلى منزله وأعطاه خمسين دينارا فأخذها فرحا ودخل السوق واشترى الدقيق وحمله الحمالون إلى داره . وسألته أمه : من أين لك هذا ؟ فقال لها من الكراريس التى قدمتها إلى وكان موسى بن عمران رمز مبكر لما سيصيبه من أموال وعطايا من الخلفاء والوزراء كما يقول الدكتور شوقى ضيف[1] ورغم فقره ذلك أقبل على حلقات العلم فى مساجد البصرة وكان عصره حافلا بالعلماء والأفذاذ من أمثال أبى عبيدة والأصمعى وأبى زيد الأنصارى وأبى حسن الأخفش والنظام وأخذ عنهم جميعا[2] ولكنه لم يقف عند علمهم وإنما كان يذهب إلى المربد فيجلس إلى الأعراب يأخذ عنهم اللغة والشعر شفاها ، وهيأت له مواهبه التفوق وسعة العلم والمعرفة فقد كان صافى النفس ، قوى الذاكرة ، لماح الذكاء مخلصا فى طلب العلم وتحصيله نهما فى ذلك إلى أبعد الحدود .

حدث أبو هفان قال :

لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان حتى إنه كان يكترى دكاكين الوارقين ويبيت فيها للنظر[3] .

ويبدو أن إقباله على حلقات العلم ونهمه بالتحصيل كان شديدا استغرق

---

(١) العصر العباسى الثانى ص ٥٨٨ عن المعتزلة لابن المرتضى .

(٢) معجم الأدباء ج ٦ ص ٥٦ .

(٣) معجم الأدباء ص ٥٧ والفهرست لابن النديم - ج ١ دار المعرفة بيروت ص ١٦٩ .

كل نشاطه ، وشغل كل تفكيره واستولى على حواسه جميعها ، ولهذا فقد كان ينسى أشياء لا تنسى .

حدث الجاحظ قال : نسيت كنيتى ثلاثة أيام حتى أتيت أهلى فقلت لهم بم أكنى ؟ فقالوا : بأبى عثمان(١) .

هل رأيت إلى ذلك الفتى المؤهل لطلب العلم يقبل على حلقات الدرس حتى ينسى كنيته ؟ لا بد أنه أسلم نفسه تماما لتلك الرغبة الملحة فى تحصيله حتى استحوذت على مشاعره كلها ولم يبق له شاغل غير العلم والمعرفة .

وبلغ من تحصيله أنه ألف فى كل المعارف وفى كافة العلوم تأليفا متقنا بقى على الأجيال . وشهد له معاصروه وغير معاصريه على السواء .

وقد اتصل الجاحظ بحكام عصره من خلفاء ووزراء ونال جوائزهم وهباتهم ، وتهيأت له بذلك حياة تفرغ فيها للعلم والتأليف بذهن صاف وقلب متحفز وثاب .

وكان يقول : إذا سمعت الرجل يقول : ماترك الأول للآخر شيئا فاعلم أنه ما يريد أن يفلح ، ولئن دل هذا الكلام على شىء فإنما يدل على تحفزه فى طلب العلم وسعة إدراكه لما أمامه من مجالات التحصيل والتأليف على السواء .

ولم يل الجاحظ شيئا من مناصب الدولة غير أنه ولى ديوان الرسائل أيام المأمون ثلاثة أيام ثم استعفى منه فأعفى .

وكان سهل بن هارون يقول : إن ثبت الجاحظ فى هذا الديوان أفل نجم الكتاب(٢) .

ويبدو أنه ترك ديوان الرسائل حرصا على حريته ووقته وإيثارا للسلامة من كيد المنافسين ، وخصومة المرءوسين وتفضيلا لكتبه ومؤلفاته التى كان يعتز بها إلى حد كبير .

---

(١) معجم الأدباء جـ ٦ ص ٥٦ . (٢) معجم الأدباء ص ٥٨ .

ويرجح أحد المعاصرين أنه كان يحصل على راتب من الدولة(١) ولعل ذلك الراتب أغناه عن مناصب الدولة وعنائها الطويل ، على أنه كان قليل الحاجة إلى المال ذلك أنه لم يتزوج ولم ينجب وكان معتدلا فى حياته مما جعله يقنع برزقه المألوف وينأى عن العمل فى ديوان الرسائل وما قد يجلبه من رزق لا يحتاجه ولا يتطلع إليه .

وكان الجاحظ فى أواخر عمره قد أصابه الفالج (الشلل) فكان يقول: اصطلحت على جسدى الأضداد إن أكلت باردا أخذ برجلى وان أكلت حارا أخذ برأسى كما كان يقول : أنا من جانبى الأيسر مفلوج فلو قرض بالمقاريض ماعلمت به ومن جانبى الأيمن مقرمس فلو مر به الذباب لألمت وبى حصاة لاينسرح لى البول معها وأشد ماعلى ست وتسعون سنة(٢) .

ولكن مرض الفالج لم يقعده عن طلب العلم والتأليف فقد ألف كتاب الحيوان وهو مفلوج قال الحصرى ومن إحـــدى عجائبه أنه ألف كتاب الحيوان وهو على تلك الحال يعنى السن العالية والفالج الشديد .

وما بالنا نذهب بعيدا والجاحظ نفسه يقول : وقد صادف هذا الكتاب منى حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه أول ذلك العلة الشديدة ،

ومعلوم أنه ألف كتاب الحيوان باسم محمد بن عبدالملك الزيات المتوفى سنة ٢٣٣ هـ وأنه أهداه إليه فأعطاه خمسة آلاف دينار(٣) ولكن المرض كان ينال منه فعبر عن ذلك تعبيرا مؤثرا .

وجه المتوكل فى طلبه سنة ٢٤٧ يريد أن يحمل إليه فقال : وما يصنع أمير المؤمنين بامرىء ليس بطائل ذى شق مائل ولعاب سائل وعقل زائل ولون حائل(٤) .

---

(١) العصر العباسى الثانى ص ٥٩٥ . (٢) وفيات الأعيان ص ١٤٣ .
(٣) مقدمة الحيوان للاستاذ عبد السلام هارون ص ٢٥ .
(٤) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٦٠ .

وهذا كلام من بلغ به اليأس مبلغه ، وآلمه مابه من مرض وسوء حال .

وأخيرا مات الجاحظ ، أنهالت عليه الكتب وهو يقرأ فقضت عليه عام ٢٥٥ هـ .

ومن يقرأ حديثه عن الكتب التى مات بسببها يعجب أشد العجب فقد كانت عنده كل شيء ، وكان يكتب عنها الصفحات الطوال فى أكثر من كتاب حتى لتحس أن الكتاب صار معشوقه دون خلق الله ولولا المبالغة لقلت أن الكتاب كان معبوده ومتمناه يقول :

فالكتاب هو الذى يؤدى إلى الناس كتب الدين وحساب الدواوين مع خفة نقله ، وصغر حجمه ، صامت ما أسكته ، وبليغ ما استنطقه(١) .

ويقول :

والكتب بذلك أولى من بنيان الحجارة وحيطان المدر لأن من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم وأن يميتوا ذكر أعدائهم(٢) ولعل صورة الجاحظ وهو يقرأ تقرب ماذكره فى موته بسبب الكتب .

فقد كان يقرأ وهو مستلق وكانت قراءته ليلا ويؤكد هذا ماكتبه فى رسالته فى الجد والهزل يقول :

« رأيت أن انظر فيها وأنا مستلق ولا أنظر فيها وأنا منتصب استظهارا على تعب البدن إذكانت الأسافل مثقلة بالأعالى وإذكان الانتصاب يسرع فى إدخال الوهن على الأصلاب ولأن ذلك أبقى على نور البصر وأصلح لقوة الناظر ، إذكل واحد من هذه المصاحف قد أعجز يدى بثقل جرمه ، وضيق صدرى بجفاء حجمه وإذا ثقل أنكأ الصدر وأوهن العظم وإذا أنا نظرت فيها وأنا جالس سددت عينى وتقوس ظهرى واجتمع الدم فى وجهى .

ثم يقول : وعلمت أن الدرس لليل وأن الكتاب لا يقرأ إلا ليلا

(١) الحيوان ص ٥٠ . (٢) المصدر السابق ص ٧٣ .

والنيران زاهرة والمصابيح مقربة وعلمت أن كل من ضعف بصره وكل نظره فإنه أبدا أقرب مصباحا وأعظم نار(١) .

فإذا كان يقرأ وهو مستلق غير جالس ولا متمكن ويقرأ ليلا في ضوء مصباح وهو مريض عاجز عن الحركة موهن كان الموت على هذه الصورة أمرا مألوفا وشيئا مستساغا .

مصادر ثقافته :

خلف الجاحظ مؤلفات عديدة بلغت نحو ثلاثمائة وستين مؤلفا رآها سبط ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ في مشهد أبي حنيفة النعمان ببغداد(٢) .

ويقول المسعودى :

ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتبا منه(٣) هـــذا من جهة الكثرة والتعدد أما من جهة الموضوعات فإن مؤلفاته تناولت عديدا من الموضوعات ، وأشتاتا من المعرفة فشملت كل ألوان الثقافة المعروفة في عصره تقريبا . إذ كتب في البلاغة والنقد ، والتراجم والرجال والأخبار وعلم الكلام وتعرض للتفسير والحديث الشريف وأحوال الأمم ومعايش الناس وسياسة الدولة ، وأجناس الخلق ، وغيرها من الموضوعات .

وحسبنا أن نعرض لموضوعات رسائله التي نشرها الأستاذ عبد السلام هارون لنرى صدق ذلك .

ومن رسائله :

مناقب الترك ، المعاش والمعـــاد ، كتمان السر وحفظ اللسان ، فخر

(١) رسائل الجاحظ ج ١ ص ٢٥١ رسالة في الجد والهزل .
(٢) مقدمة الحيوان ص ٥ نقلا عن مرآة الزمان الورقة ٥٨ من المجلد العاشر .
(٣) المصدر السابق ص ٦ نقلا عن مروج الذهب ج ٤ ص ١٣٥ .

السودان على البيضان ، رسالة فى الجدل والهزل ، فى نفى التشبيه ، فى الفتيا فضل مابين العداوة والحسد ، صناعات القواد ، فى النابته ، الحجاب ، مفاخرة الجوارى والغلمان ، القيان ، ذم أخلاق الكتاب ، البغال ، المعلمون ، النساء ، الرد على النصارى ، خلق القرآن ، مقالة العثمانية ، البلاغة والإيجاز ، تفضيل البطن على الظهر ، مقالة الزيدية والرافضة وغيرها كثير .

ويستطيع دارس علم الاجتماع والبلاغة والأدب والتاريخ والكلام والأجناس والحكمة وغيرها من العلوم أن يجد فى كتب الجاحظ مرجعا أساسيا فى موضوعه يغنى عن الكثير ، ولا يغنى عنه سواه .

ويتبادر إلى الذهن سؤال هام ، من أين للجاحظ هذه الثقافة ؟ كيف تأتى له أن يجمع هذا القدر من العلم فى كل هذه الأبواب والفنون ؟

وأول مصدر من مصادر ثقافته المساجد التى يقتبس منها الكثير ويتردد على حلقاتها فينهل من علوم الدين كالتفسير والحديث والفقه والقصص القرآنى وقصص الوعظ ومباحث التوحيد وعلم الكلام وغيرها من العلوم ، وقد وصف فى كتبه بعض تلك المجالس فى مجال الجد وفى مجال الهزل على السواء .

وكانت المساجد فى هذا العصر حافلة بألوان من النشاط الدينى والعلمى يؤمها العلماء الأفذاذ ابتغاء الثواب والأجر كما يقصدها طلاب العلم طاعة وتقوى .

ومن أخبار كعب القاضى حكى الجاحظ فى كتابه الحيوان منتقدا وقاصدا إلى الفكاهة والتسلية(١) .

كما ذكر قصة عبد الله بن سوار والحاح الذباب عليه رغم وقاره وحلمه فى مسجد البصرة حتى أخرجه عن وقاره(٢) كما ذكر طرائف عبد الأعلى(٣)

---

(١) الحيوان ج ٣ ص ٢٤ ومابعدها .
(٢) الحيوان ج ٣ ص ٣٤٣ .
(٣) المصدر السابق ج ١ ص ١٠٧ .

ولو جمعت حكاياته عن القصاصين والخطباء لطال الحديث .

وحلقات العلم فى الصورة كانت مصدرا من مصادر ثقافته وقد أفاد من الأصمعى ومن أبى عبيدة (١١٠ — ٢٠٩ هـ) كما أفاد من أبى الحسن على بن محمد المدائنى (١٣٥ - ٢٠٩ هـ) ومن هشام بن محمد الكلبى الكوفى المتوفى سنة ٢٠٦ ومن النظام صاحب الكلام والاعتزال الكثير مما يبثه فى كتبه ويورده فى رسائله لأدنى سبب ومن غير سبب فى بعض الأحيان .

وتأتى القراءة والدأب على السهر والتحصيل مصدرا من مصادر ثقافته وهو معروف بالقراءة وحب الكتاب وحديثه عن الكتاب حديث العاشق المتيم ، ثم هو يقرأ فى كل شىء قراءة واع متدبر وكأنه يأنس إلى الكتاب أنسه إلى الجليس العاقل الذى يحادثه ويسامره ، يقول عنه :

نعم الكتاب الذخر والعقدة(١) ، ونعم الجليس والعدة ، ونعم النشرة والنزهة ، ونعم المشتغل والحرفة ، ونعم الأنيس لساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل ، ونعم الوزير والنزيل .

والكتاب وعاء ملىء علما ، وظرف حشى ظرفا وإنا شحن مزاحا وجدا إن شئت كان أبين من سبحان بن وائل وإن شئت كان أعيا من باقل ، وإن شئت ضحكت من نوادره ، وإن شئت من غرائب فرائده وإن شئت أطلتك طرائفه ، وإن شئت أشجتك مواعظه ومن لك بواعظ مله . وبزاجر مغر ، ويناسبك فانك ، وبناطق أخرس ، ومن لك بطبيب أعرابى ، ومن لك برومى هندى ، وبفارس يونانى .. ومتى رأيت بستانا يحمل فى ردن وروضة تقل فى حجر ، وناطق ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ، ومن لك بؤنس لا ينام إلا بنومك ولا ينطق إلا بما تهوى ، آمن من الأرض وأكتم للسر من صاحب السر وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة(٢) .

(١) العقدة : بضم العين مافيه بلاغ الرجل وكفايته .
(٢) الحيوان ج ١ ص ٤٠ .

ولو سرت معه فى حديثه عن الكتاب لرأيت العجب العجاب من هوى شديد وغرام تليد ومن تعداد لفضائله ، وإحصاء لمآثره فى تعبير رصين ، وأسلوب مكين ، يبلغ شغاف القلوب ، كأنه حديث حبيب لمحبوب .

وقد ذاع عنه أنه كان يكثرى دكاكين الوارقين للنظر والدرس .

وكان يعتنى بكتبه تجليدا ونسخا وتنسيقا ويتحدث عن ذلك حديث الخبير فيقول : « جمعت البعض إلى البعض ، والشكل إلى الشكل وتقدمت فى استجادة الجلود ، وفى تميز الصناع وفى تخير البياعات[1] ويقول فى نفس الرسالة لمحمد ابن عبد الملك الزيات : « لم زينت النسخ فى الجلود ، وأنت تعلم أن الجلود حافية الحجم ثقيلة الوزن . إن أصابها الماء بطلت ، وهى أنتن ريحا وأكثر ثمنا : وأحمل للغش[2] .

وهناك المشافهة والحديث إلى الأعراب الذين كانوا يجلسون فى مربد البصرة وفى مرابعها المختلفة ممن كانت لغتهم لا تزال على العهد بها صحيحة لاتصالهم بالبادية ، وبعدهم عن الأعاجم من الموالى وغير الموالى ممن كانت ألسنتهم غير مستقيمة ، وكانوا قد كثرت أعدادهم فى دولة بنى العباس .

وتلمس أثر هؤلاء الاعراب فى كثير من كتاباته ولاسيما فى كتاب الحيوان والبيان ، فهو يذكر أحاديثهم ومشاهدهم وطرائفهم وقد ينقلها عن غيره ولن أسوق أمثلة على ذلك لأنه كثير فى كتاباته وقل أن تقرأ له فصلا حتى تجد أكثر من مثال[3] .

ومن المشافهة ما كان يستمع إلى معاصريه أو يسألهم عنه وهو فى هذا لا يقف عند معاصريه من العلماء وإنما يسأل الملاحين[4] وأهل السكة وباعة

---

(١) رسائل الجاحظ رسالة فى الجد والهزل ص ٢٤٨ ج ١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٤ ج ١ .

(٣) الحيوان ج ٢ ص ١٢١ وما بعدها .

(٤) الحيوان ج ٢ ص ٢١٧ .

مزيعة بنى منقر ، وكل صديق وصاحب وكل جارية أو خصى وغيرهم ممن يظن(١) أن عندهم معرفة لما يريد تدوينه والتثبيت منه .

ومن أهم مصادر ثقافته مشاهداته وملاحظاته الخاصة ذلك أنه كان دقيق الملاحظة ، سريع التمييز ، حاد الذكاء ويبدو أنه لم يكن يجنح إلى السكون والهدوء ، وإنما كان دائب الحركة رحل إلى دمشق وأنطاكية وكل هذا أورثه نوعا من الثقافة فيما ليس من نوع ما يؤخذ من الكتب والدفاتر ، أورثه معرفة بطبائع الناس وأخلاقهم وطرق معايشتهم وفضائلهم ورذائلهم ، وكان الجاحظ على استعداد تام لهذا النوع من الثقافة ، فنال منه حظا وافرا وكما كان حسن الاستعداد فى الأخذ منه كان كذلك فى العطاء فمن أكثر ما تمتاز به كتبه أنه يأخذ بيدك ليطلعك على الحياة الاجتماعية ويجعلك تلمسها وتذوقها على قلة الكتاب الذين يعنون بهذه الناحية(٢) .

وتبلغ ملاحظات الجاحظ درجة بعيدة من الدقة قل أن تتأتى لكثيرين فتراه يلاحظ نطفة الديك . ان صح هذا التعبير - ويصفها بأنها بيضاء اللون متماسكة(٣) . وتأمله وهو يتحدث عن مشاهداته :

وقد توجد المرأة ذات لحية وقد رأيت ذلك ، وأكثر ما رأيته فى عجائز الدهاقين وكذلك الغيب والشارب وقد رأيت ذلك أيضا(٤) .

ولو حاولت أن استشهد على هـــذا المصدر من مصادر ثقافة الجاحظ لأعيانى الاستشهاد ذلك أنه كان يشبه الآلة المصورة الدقيقة حيث يعى كل ماتقع عليه عينه وكل ماتسمعه أذنه وكل مايصل إليه فى دقة وإمعان ثم يؤدى ذلك أحسن الأداء ، كما يقول الدكتور أحمد أمين وتعجب كيف تأتى له حفظ ذلك كله ثم تسجيله وكتابته حينما يريد ووقتما يشاء . . إنه الجاحظ دائرة المعارف التى سعت العصر وأجادت التصوير .

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٢٦ .
(٢) ضحى الإسلام للمرحوم أحمد أمين جـ ١ ص ٣٨٨ طبعة سابقة .
(٣) الحيوان جـ ٣ ص ٢٤١ ، ١٤ ، ٣٢ . (٤) المصدر السابق جـ ١ ص ١١٥ .

منزلته :

يكاد الباحثون يجمعون على أن الجاحظ كان زعيم البيان العربي وأنه أمام فذ من أئمة الكلام والكتابة فى العربية وشهد له بذلك أنصاره وخصومه على السواء .

قال أبو حيان وحدثنا ابن مقسم وقد طال ذكر الجاحظ لأبي هفان لم لاتهجو الجاحظ وقد ندد بك وأخذ بمخنقك فقال : أمثلي يخدع عن عقله والله لو وضع رسالة فى أرنبه أنفى لما أمست إلا بالصين شهره ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت فى ألف سنة[1] .

فإذا دل هذا على شيء فإنما يدل على أن شهرة الجاحظ فى حياته بلغت أقصى الأرض كما احتفل الناس بكتبه ورسائله ، وقد سبق أنه أجيز على كتاب الحيوان بخمسة آلاف دينار من محمد بن عبد الملك الزيات الوزير كما أن أحمد ابن أبي دؤاد وزير المتوكل فعطاه خمسة آلاف دينار فى كتابه البيان والتبيين كما كوفىء بخمسة آلاف ثالثة من إبراهيم بن العباس الصولى فى كتابه الزرع والنخل ، وأجرى عليه الفتح بن خاقان وزير المتوكل راتبا شهريا إذ صنف له رسالة فى فضائل الترك[2] .

وهناك شهادة ثالثة صريحة وواضحة فى بيان منزلة الجاحظ قال أبو حيان التوحيدى فى كتابه الذى ألفه فى تقريظ الجاحظ حدثنا أبو سعيد السيرافى قال حدثنا جماعة من الصابئين الكتاب أن ثابت بن قرة قال :

« ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة منهم الجاحظ خطيب المسلمين وشيخ المتكلمين ومدره المتقدمين والمتأخرين إن تكلم حكى سحبان البلاغة وأن ناظر ضارع النظام فى الجدال وإن جد خرج فى مسك عامر بن عبد قيس

(١) معجم الأدباء ص ٧١ .
(٢) الفن ومذاهبه ص ١٥٧ .

وإن هزل زاد على مزيد شيخ الأدب ولسان العرب كتبه رياض زاهرة ورسائله أفنان مثمرة ماانازعه منازع إلا رشاه آنفا ولا تعرض له منقوص إلا قدم له التواضع استبقاء ، الخلفاء تعرفه والأمراء تصفه وتنادمه والعلماء تأخذ عنه والخاصة تسلم له والعامة تحبه جمع بين اللسان والقلم وبين الفطنة والعلم وبين الرأى والأدب وبين النثر والنظم وبين الذكاء والفهم طال عمره وفشت حكمته وظهرت خلته ووطىء الرجال عقبه أربه وافتخروا بالانتساب إليه ونجحوا بالاقتداء لقد أوتى الحكمة وفصل الخطاب .

هذا قول ثابت وهو قول صابىء لا يرى للإسلام حرمة ولا للمسلمين حقا ولا يوجب لأحد منهم زماما قد انتقد هذا الانتقاد ونظر هذا النظر وحكم هذا الحكم وأبصر الحق بعين لاغشاوة عليها من الهول(١) .

وهناك شهادة رابعة له :

قرأ ابن الأخشاد فى أول كتاب الحيوان أسماء كتب الجاحظ التى ذكرها ومر به فى جملتها الفرق بين النبي والمتنبىء وكتاب دلائل النبوة وقد ذكرهما الجاحظ هكذا على التفرقة .

يقول ابن الأخشاد : فأحببت أن أرى الكتابين ولم أقدر إلا على واحد منهما وهو كتاب دلائل النبوة ، فهمنى ذلك وساءنى فى سوء ظفرى به فلما شخصت من مصر ودخلت مكة حرسها الله تعالى حاجا أقمت مناديا بعرفات ينادى والناس حضور من الآفاق على اختلاف بلدانهم وتنازح أوطانهم وتباين قبائلهم وأجناسهم من المشرق إلى المغرب ومن مهب الشمال إلى مهب الجنوب وهو المنظر الذى لا يشابهه منظر ، رحم الله من دانا على كتاب الفرق بين النبي والمتنبىء لأبى عثمان الجاحظ على أى وجه كان » .

هكذا تبلغ منزلة كتب الجاحظ أن ينادى عليها فى ربوع مكة فى موسم الحج ، ولم يصل إلينا أنه نودى على كتب غيره فى ذلك المشهد العظيم .

---

(١) معجم الأدباء المعروف بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ص ٧٠ ، ٧١ .

وقد بلغ من ذيوع أمره ، وشهرته أن طالب العالم بالمشرق كان يشرف فى الأندلس بلقاء أبى عثمان وأن كتابه التربيع والتدوير وكتابه البيان والتبين وقعا فى الأندلس فبلغ الحاحظ بهما للسماكين فخرج بعض طلاب العلم إلى إلى المشرق للقائه والتلمذة عليه عشرين سنة(١) .

أما ابن العميد وهو من هو علما وفقها ونقدا فكان يقول عن الجاحظ أن كتبه تعلم العقـــل أو الأدب ثانيا أما شهادة المأمون له فتربوا على ذلك كله .

يقول الجاحظ :

ولما قرأ المأمون كتبى فى الإمامة فوجدها على ما أمر به ، وصرت إليه وقد كان أمر اليزيدى بالنظر فيها ليخبره عنها قال لى :

قد كان بعض من يرتضى عقله ويصدق خبره أخبرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة فقلنا له : قد تربى الصفة على العيان ، فلما رأيتها رأيت العيان قد أربى على الصفة ، فلما فليتها أربى الفلى على العيان كما أربى العيان على الصفة وهذا كتاب لايحتاج إلى حضور صاحبه ولا يفتقر إلى المحتجين عنه قد جمع استقصاء المعانى واستيفاء جميع الحقوق مع اللفظ الجزل والمخرج السهل فهو سوقى ملوكى وعامى خاص(٢) .

وتبقى بعض الأحكام التى نالت من الجاحظ وهى تتصل فى الغالب بعلم الحديث وبكتب الرجال على وجه الخصوص .

يقول صاحب ميزان الاعتدال عنه :

روى عنه أبو بكر بن أبى داود فيما قيل .

قال ثعلب : ليس بثقة ولا مأمون .

---

(١) انظر القصة فى معجم الأدباء ص ٧٤ وما بعدها .

(٢) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٧٣ طبعة الخانجى ١٩٧٥ .

قلت : وكان من أئمة البدع[1] .

ثم نجد مرجعا آخر وكلاما أطول من هذا ولكنه يدور فى هذا الإطار فهذا ابن حجر فى لسان الميزان يقول : نفس الكلام بنصه ثم يزيد عليه ما رواه الجاحظ عن المأمون وشهادته له وأن كتابه جمع واستوفى فهو سوقى ملوكى وعامى خاصى ثم يعلق عليه قائلا :

قلت وهذه والله صفة كتبه كلها فسبحان من أضله على علم[2] .

ولو صرفنا النظر عن رمية بأنة من أئمة البدع التى نقلها عن الذهبى فكلامه شهادة له ولكتبه كلها ، والفضل ماشهدت به الأعداء كما يقولون .

ويقول ابن حجر :

وذكر أبو الفرج الأصبهانى أنه كان يرمى بالزندقة[3] وينقل ابن حجر عن ابن حزم فى الملل والنحل أن الجاحظ كان أحد المجان الضلال غلب عليه الهزل ، ومع ذلك فأننا مارأينا له فى كتبه تعمد كذبة يوردها مثبتا لها وإن كثير الإيراد لكذب غيره[4] .

وندع كلامه عن المجون والهزل ، ونذهب إلى آخر كلامه فنراه ينفى عنه تعمد كذبه ، فهو لا يعمد كذبة واحدة . أما مايورده من كلام غيره فهو مجرد حاك وناقل لا يؤخذ بما يشيع بين الناس ، ولا بما يتناقله الرواه .

فكلام ابن حزم شهادة له ، أما أنه أحد المجان الضلال الذين غلب عليهم الهزل ، فقدم أسرف ابن حزم فى هذا ولا يعقل أبدا أن يقدر ماجن هازل

---

(١) ميزان الاعتدال فى نقد الرجال للذهبى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ ط عيسى الحلبى القسم الثالث ص ٢٤٧ .

(٢) لسان الميزان ص ٣٥٥ الجزء الرابع منشورات مؤسسة الأعلمى .

(٣) المصدر السابق ص ٣٥٦ .

(٤) لسان الميزان ص ٣٥٧ الجزء الرابع .

على تأليف ماتركه الجاحظ من مؤلفات ، وقد يكون قوله بالاعتزال مبعث كثير من الأحكام التى رمى بها من بعض هؤلاء .

ونقل ابن حجر أيضا :

قال أبو منصور الأزهرى فى مقدمة تهذيب اللغة : ومن تكلم فى اللغات وروى عن الثقات ماليس من كلام الجاحظ ، وكان أوتى بسطه فى القول وبيانا عذبا ومجالا فى الفنون ، غير أن أهل العلم زبوه وعن الصدق ضعفوه .

وقال ثعلب : كان كذابا على الله وعلى رسوله وعلى الناس[1] .

وهى تهم لا تعدو سابقتها غير أنها موشاة بالسجع « ذبوه - دفعوه وفيها نقل عن ثعلب أيضا وكأنه مصدر مارمى به الجاحظ من تهم وظنون .

ولكن ابن حجر يقول :

حكى الخطيب بسنده أنه كان لا يصلى[2] وربما كان فى ذلك نوع من التحامل مصدره ماذكرت من أن الجاحظ كان من المعتزلة وله فرقة تنسب إليه الجاحظية والمعتزلة موضع ذم أهل السنة والجماعة يرمونهم بكل ما يشين كما هو معروف فى علم الكلام .

وتابع هؤلاء كثير من المؤلفين كما فعل ابن منظور صاحب لسان العرب المتوفى سنة ٧١١ فقد نقل كلام الأزهرى مؤكدا اتهامه إياه بأنه كذاب غير ثقة ولا مأمون[3] .

ونحن نعرض للجاحظ من جهة أدبه وفنه وندع ماقاله المحدثون لأن ذلك مجال آخر غير ماتحن فيه ولن نعرض لما نقل عنه من أحاديث وحسبنا أنا عرضنا أقوالهم ولاحظنا أن أحدهم ينقل عن الآخر وأن بعضهم نفى عنه تعمد كذبه ولعل فى ذلك أبلغ رد على كثير من التهم والإدعاءات .

(١) لسان الميزان ص ٣٥٧ الجزء الرابع .
(٢) لسان العرب ج ١ ص ٥٥٠ .
(٣) لسان العرب ج ١ ص ٥٥٠ .

سمات أدبه :

١ ـ العناية بالألفاظ والأساليب :

يهتم صاحبنا كل الاهتمام باختيار ألفاظه بدقة بالغة بحيث تكون متلائمة مع الجملة التى تكونها تلك الألفاظ وبحيث تتلاءم الجمل المختلفة فى أداء المعنى الذى يريد التعبير عنه كل التلاؤم .

وألفاظه تنأى عن السوقية ، وتبتعد عن العجمة ولكنها لا توغل فى الغرابة ولا تعزب عن فهم القارئين فتأتى فى درجة من البلاغة والإفهام متميزة بأداء المعنى فى وضوح وجلاء .

وهو يعبر عن الأفهام ويجعله أساسا للتأليف فيقول : وليس الكتاب إلى شىء أحوج منه إلى أفهام معانيه حتى لا يحتاج السامع لما فيه من الروية ، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشو ويحطه عن غريب الأعراب ووحشى الكلام(١) .

فهو يختار الألفاظ الصحيحة ، والمفهومة فى نفس الوقت فتكون بذلك أعلى من ألفاظ العوام وأدنى عن غريب الأعراب .

وهو يعيب إدمان النظر فى الكتاب ومعاودة الفكر ومراجعته لأن ذلك يجعله أقرب إلى التصنع وأبعد عن الوضوح فيقول : « وليس أن يهذبه جدا وينقحه ويصنعه ويرونه حتى لا ينطق إلا بلب اللب وباللفظ قد حذف فضوله ، وأسقط زوائده ، فإنه إن فعل ذلك لم يفهم عنه إلا بأن يجد له إفهاما مرارا وتكرارا لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام .

وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم إلا بأن يعكس عليها ويؤخذ بها . ألا ترى أن كتاب المنطق لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب لما فهموا أكثره(٢) .

---

(١) الحيوان جـ ١ ص ٨٩ . (٢) المصدر السابق ص ١٠ .

فهو يعيب الغموض وينأى عنه ويرى أن ما تعوده الناس من البسط أولى بالرعاية مادام بعيداً عن ألفاظ السفلة من الناس . والبسط الذي يقصده الجاحظ يتمثل في تكرار جمل وتعاقبها على أداء المعنى حتى يتمثله القارىء . وهذا البسط لا يتنافى مع الإيجاز الذي أورد فيه رأي صحار العبدي وقد سأله معاوية ابن أبي سفيان ما الإيجاز ؟ فقال :

أن تجيب فلا تبطىء وتقول فلا تخطىء . وكأن الجاحظ لم يرتض ذلك التعريف فعرف الإيجاز بالاختصار ثم قال :

ولكن الاختصار ليس يعني قلة عدد الحروف واللفظ وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار فقد أوجز ، وكذلك الإطالة ، وإنما ينبغي له أن يحذف بقدر ما لا يكون سبباً لإغلاقه ، ولا يريد وهو يكتفي في الإفهام بشطره ، فما فضل عن المقدار فهو الخطل(١) .

فالهدف الأسمى عنده الإفهام ووصول المعنى إلى ذهن القارىء مهما كان البسط لأنه لا يتنافى مع الإيجاز في رأي الجاحظ .

وهو يشير بهذا إلى مطابقة الكلام لمقتضى الحال التي صارت اصطلاحاً عند البلاغيين بعد ، وبهذا يعتبر من مؤسسي علم البلاغة في هذه وفي غيرها من مسائل ذات بال .

ويجنح إلى أبي الحسن الأخفش فيعيب استغلاق كتبه ويسأله : لم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟ ويحكي أنه أجابه أنا رجل لم أضع كتبي هذه قط ، وليست هي من كتب الدين ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه قلت حاجاتهم إلى فهمها وإنما كانت غايتي المنالة فأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا وإنما قد كسبت في هذا التدبير إذ كنت إلى التكسب ذهبت ولكن ما بال النظام وفلان وفلان

---

(١) الحيوان جـ ١ ص ٩١ .

يكتبون الكتب لله بزعمهم ثم يأخذها مثلي في موافقته وحسن نظره وشدة عنايته ولا يفهم أكثرها[1] فهو يعيب استغلاق كتب الأخفش وينقل عنه هذا التعليل المشين ، ثم ينقل إلى النظام وغيره فينحى عليه باللوم .

وقد سمى الدكتور شوقي ضيف هذه السمة بالتلوين الصوتي ويقصد بذلك الإيقاع الذي يتأتى بالتكرار والترداد[2] .

وأقرأ قوله :

هذا أبقاك الله الجزء الثالث من القول في البيان والتبيين ، وما شابه ذلك من الأحاديث ، وشاكله من عيون الخطب ، ومن الفقر المستحسنة والنتف المستخرجة والمقطعات المتميزة[3] .

وانظر إلى قوله :

شابه ذلك من غرر الأحاديث وشاكله من عيون الأخبار فسترى أن الجملتين تكادان تتساويان في الكلمات وبين شابه وشاكل وبين عيون وغرر وبين أحاديث وأخبار مشاكلة في المعنى واللفظ أيضا .

٢ ـ دقة الرأي واستقصاء المعنى :

كان الجاحظ يرى أن المعاني مطروحة يعرفها العربي والأعجمي ، وأن التفاضل بين الناس يتأتى بالألفاظ والأساليب، أما المعنى فلا فضل فيها لمؤلف على آخر .

ترى ما الذي دفعه إلى ذلك الرأي حتى جعله ينال من المعاني على هذه الصورة ؟

---

(١) الحيوان ج ١ ص ٩٢ .
(٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ١٦٩ .
(٣) البيان والتبين ج ٣ ص ٥ .

أغلب الظن أن المعانى عند الجاحظ كانت كثيرة متسلسلة لا يتعسر عليه رأى ولا يستعصى عليه موضوع وكان ذلك من أثر قراءاته ومشاهداته كما سبق أن أوضحت ومن هنا حكم عليها بأنها عطروحة ولا تفاضل بين حد من جهتها .

لكنه مع ذلك يبحث عن الرأى المحدد الدقيق ، ويخشى قالة الناس ، ونقدهم إياه إن أخطأ الرأى أو افتتن فى كتابة ، وهو ينظر إلى الناس جميعاً وكأنهم أعداء أصحاب علم وتفرغ للنقد والتمحيص ، ومن هنا أوجب تنقيح المؤلفات كما قال .

وينبغى لمن كتب كتابا ألا يكتبه إلا على الناس كلهم له أعداء ، وكلهم عالم بالأمور ، وكلهم متفرغ له ، ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلا ، ولا يرضى بالرأى الفطير فإن لابتداء الكتابة فتنة وعجبا فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة وتراجعت الأخلاط وعادت النفس وافرة أعاد النظر فيه فيتوقف عند فضوله توقف من يكون وزن طعمه فى السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب ، ويتفهم معنى قول الشاعر :

إن الحديث تغر القوم خلوته حتى يلح بهم عى وإكثار

ويقف عند قولهم فى المثل « كل مجرى الخلاء يسر » فيخاف أن يعتريه ما اعترى من أجرى فرسه وحده أو خلا بعلمه عند فقد خصومه ، وأهل المنزلة من أهل صناعته(١) .

فهو يحذر من الرأى الفطير الذى لم ينضج ولم يستقم ويوجب معاودة النظر من غير غرور ولا ادعاء وكثيرا ما رأينا الجاحظ ينقد آراء سمعها ، ومسائل وصلت إليه ويحمل عليه حملات مشهودة ، مفندا إياها بالحجة والدليل وهو فى عنايته بالكتاب يوازن بينه وبين الولد بل يجعله أدنى نسبا من ولده وأقرب رحما يقول :

(١) الحيوان جـ ١ ص ٨٨ .

واعلم أن العاقل إن لم يكن بالمتتبع فكثيرا مايعتريه من ولده أن يحسن في عينه منه المقبح في عين غيره ، فليعلم أن لفظه أقرب نسبا منه من ابنه ، وحركته أمس به رحما من ولده ثم يعلل ذلك في بسط ووضوح(١).

أما استقصاء المعنى والإحاطة به من جميع جوانبه وجهاته فتلك واضحة في كتب الجاحظ ، ولعل نزعته العقلية جعلته أحد شيوخ المتكلمين وأحد زعماء المعتزلة ومن أصحاب النحل والمذاهب في عصره ، فنزعته العقلية دفعته إلى استقصاء المعنى والنظر إليه من كل مناحيه ودفع كل شبهة ورد كل نقد بوضوح كامل ، وتراه يفترض أن معترضا اعترض على كلامه فينتحى للرد عليه بهمة موفورة وفكر جياش ، وربما أخرجه ذلك من قول إلى قول ودعاه إلى الاستطراد وتلك سمة أخرى من سمات حديثه وكتابته ، يستمر ما شاء الله ، ثم يعود إلى موضوعه وافرا في قوة وجيشان .

واستقصاء المعنى عنده يتناول الأمر الخطير والهين على السواء لا يمنعه عظم الأمر ولا سهولته من التوفر عليه مهما كان .

أنه يعلل لطلب الولد من جهة فيذكر الكثرة والنصرة والحاجة إلى العدد والقوة ، والحرص على توريثه المال نفاسة بماله على بني عمه ، أو أن يليه القضاة والحكام ، ويذكر بقاء الذكر أو يطلب الولد على جهة الثواب في مباهاة المشركين والزيادة في عدد المسلمين ، أو للكسب والكفاية أو المدافعة والمناصرة وللامتناع ، وبقاء نوع الإنسان ، أو لما طبع الله عليه بني آدم من حب الذرية وكثرة النسل ويورد الشعر ومأثور القول في قوة وتمكن حتى لايدع مزيدا من القول لقائل مهما كان(٢) .

ولم أذكر كلامه لأنه يستغرق صفحات . .

وحرصه على سلامة الرأى ودقته هو الذى جعله يرجع إلى الحق في رأى ارتآه ، وفكرة ذهب إليها رغم أنه لم يقدر على تصحيحها في كتابه لأمر خارج عن إرادته وتقديره حدث يحيى بن المنجم قال :

(١) الحيوان ج ١ ص ٨٨ . (٢) الحيوان ج ٦ ص ٥٦ .

قلت للجاحظ مثلك فى علمك يقول فى كتاب البيان والتبين ، ويكره للجارية أن تشبه الرجال فى فصاحتها ألا ترى إلى قول مالك بن أسماء الفزارى.

وحديث ألذ هو مما ... ينعت الناعتون يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا ... نا وخير الحديث ما كان لحنا

فتراه من لحن الإعراب وإنما وصفها بالظرف والفطنة وإنما تلحن أى تورى فى لفظها عن أشياء وتتنكب ما قصدت إليه . فقال الجاحظ : فطنت لذلك قلت فغيره . قال : فكيف لى بما سارت الركبان(١) .

فهو يرجع إلى الحق ، ويعترف بخطئه ، ولكنه لا يستطيع أن يغير بعد أن سارت كتبه إلى سائر الأمصار .

على أنه لم يعدم مدافعا عن رأيه وماذهب إليه أول الأمر . إذ ذهب بعضهم إلى أن المنطق الملحون من الغوانى غير مكروه لأنه بالتأنيث أشبه وللشهوة أدعى ، ومع الغزل أحرى .

٣ - مزج الجد بالهزل :

طرق الجاحظ موضوعات عديدة كما عرفنا ، وأكثر موضوعاته جاد يتعلق بأمور الأدب ومسائل البلاغة ، وعلم الكلام بما فيه من مشكلات ومعضلات وقليل منها فى مسائل اللهو والتسلية مثل كتابه البخلاء ورسالة التربيع والتدوير ونحوها .

وكتابته فى مسائل اللهو فيها جد محض وعلم غزير أما كتابته الجادة فإنه يقصد فيها قصدا إلى اللهو يوشى به كتابته ويقطع به جده ، ويذهب ملل القارىء وسآمته يقول الأستاذ أحمد أمين :

تحرر الجاحظ من قيود كثيرة ، تقيد بها علماء عصره ، تحرر من التزام الجد وثقل الغموض الذى كرهه من أستاذه الأخفش ، فهو دائما يخلط جدا بهزل ، ويسقيك اللقمة الجافة بكثير من الحلوى(٢) .

(١) معجم الأدباء جـ٦ ص ٦٥ . (٢) ضحى الإسلام جـ ١ ص ٣٨٨ .

وكلام أحمد أمين يحمل بعض التعليل لمذهب الجاحظ فى خلط الجد بالهزل ، وعلة ذلك نفوره من طريقة الأخفش التى أوردنا رأى الجاحظ فيها قبل ذلك ، ولكن ذلك ليس التعليل الكامل السديد .

إن الجاحظ يرى أن الهزل وسيلة إلى أداء الجد ووصوله إلى القارىء لأنه يذهب الملل والسأم ، ويبعد ضيق الصدر ففيه تنشيط للقلب وجمام للقوة[1] فهو يقصد إليه قصده إلى الجد نفسه ويورد ، بتأنق وفى وشى أدبه، وروعة صياغته حتى يؤدى ـ رسالته التى قصد إليها الجاحظ نصدا .

شخصية الجاحظ

تتمثل شخصية الجاحظ فى كتاباته ، وتبرز خلال الصفحات باهرة معجبة ومن سمات شخصيته التى يلمسها القارىء فى كتاباته .

القوة والاعتداد بالذات :

تبدو قوة شخصية الجاحظ واعتداده بفنه فى كل مايكتبه فهو يعتد بتأليفه فى أى موضوع كان ، كما يعتد باختياراته للشعر والأدب على السواء ، ويرى أن تلك الإختيارات لاتقل عن التأليف والسبك ، وأنهما سواء فى الدلالة على ثقافته ومعرفته وإحاطته بما ترك الأولون . ينتقى منه مايريد ، يختار منه ما يشاء .

ثم هو يرى فنه ـ وهو الكتابة ـ أسمى الفنون وأرفع المهن وأعلى درجات العمل وكفاية الدولة خطير الأمور .

وأنت تقرأ حديثه عن كلام المأمون عنه ـ وقد سبق أن أوردناه ـ فتحس أنه يشعر بفخر غير قليل .

---

(١) الحيوان ج ٣ ص ٦ .

كما كان يشعر بسعادة غامرة ، ووفود طلاب العلم يأتونه من كل حدب وصوب يتشرفون بلقياه ، ويتباهون بملاقاته عند عودتهم إلى بلادهم .

ولقد كان يخاطب المأمون وابن الزيات وزير المعتصم وابن أبي دواد وزير المتوكل وغيرهم من أصحاب السلطان وأهل الحكم ورؤوس الناس مخاطبة الند للند من غير احتياط ولا خضوع ، بل كان يترفع عليهم أحيانا ، ويعلن ذلك فى جلاء ووضوح .

ويحكى أحاديثهم فيقول :

حدثنا أحمد بن أبي داود قال : قال لى المأمون(١) ...

فيعبر عن نفسه بضمير الجماعة فى مقابلة ذكرهم من غير مناصب أو القاب .

وبصدد قوته واعتداده يشعر أن مؤلفاته بلغت درجة من الإتقان والإجادة ولاقت تقدير الناس فى عصره .

ومن سمات شخصية الجاحظ ذكاؤه العميق وذاكرته القوية :

وذكاؤه ذاك هو الذى جعله يتصرف فى كتاباته ذلك التصرف البديع ويكتب فى كل فروع المعرفة كتابة مجيد ، ويعى أحاديث معاصريه ، وينقد كتابات صاحب المنطق وينفد كثيرا من آرائه فى كتابه الحيوان .

ومن أدل القصص على ذكائه مارواه صاحب زهر الآداب قال :

قال بعض البرامكة : كنت أتقلد السند ، فاتصل بى أنى صرفت عنها ، وكنت كسبت ثلاثين ألف دينار ، فخفت أن يفجأنى الصارف ، ويسعى إلى بالمال فصفته عشرة آلاف إهليلجة فى كل أهليلجة ثلاثة مثاقيل وجعلتها فى رحلى ، ولم أبعد أن جاء الصارف فركبت البحر ، وانحدرت إلى البصرة فخبرت أن بها الجاحظ ، وأنه عليل فأحببت أن أراه قبل وفاته ، فصرت

---

(١) البيان ج ٣ ص ٣٧٧ .

إليه ، فأفضيت إلى باب دار لطيف فقرعته فخرجت إلى خادم صفراء ، فقالت : من أنت ؟ فقلت رجل غريب أحب أن يدخل إلى الشيخ فيسر بالنظر إليه . فأدت ماقلت . وكانت المسافة قريبه لصغر الدهليز والحجرة فسمعته يقول قولى له : وما تصنع بشق مائل ، ولعاب سائل ولون حائل ؟ فأخبرتنى . فقلت لابد من الوصول إليه فقال : هذا رجل قد إجتاز بالبصرة فسمع بى وبعلتى فقال : أراه قبل موته ، لأقول : قد رأيت الجاحظ . فدخلت فسلمت فرد ردا جميلا وأستدنانى ، وقال : من تكون ؟ أعزك الله فأنتسبت له ، فقال : رحم الله أباك وقومك الأسخياء الأجواد ، الكرام الأمجاد ، فلقد كانت أيامهم روض الأزمنه ، ولقد انجبر بهم خلق ، فسقيا لهم ورعيا ، فدعوت له ، وقلت أنا أسأل الشيخ أن ينشدنى شيئا من الشعر أذكره به فأنشدنى :

لئن قدمت قبلى رجال فطالما ... مشيت على رسلى فكنت المقدما
ولكن هذا الدهر تأتى صروفه ... فتبرم منقوضا وتنقض مبرما

ثم نهضت ، فلما قاربت الدهليز صاح بى فقال : يافتى أرأيت مفلوجا ينفعه الأهليج ؟ فقلت : لا ، قال فأنا ينفعنى الأهليلج الذى معك ، فأنفذ إلى منه . فقلت : السمع والطاعة . وخرجت مفرط التعجب من وقوعه على خبرى ، حتى كأن بعض أحبابى كاتبه بخبرى حين صفته ، فأنفذت إليه مائة أهليلجية(١) .

وللقصة لاريب دليل على ذكاء الجاحظ فى آخر حياته ، وعندما نالت منه الاسقام . فما بالك به فى فرط النشاط ، وقوة الحيوية وتدفق الشباب .

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب ج ١ ص ٤٩٧ ، ٤٩٨ وسرح العيون شرح رسالة ابن زيدون طبعة مصطفى الحلبى الطبعة الأولى سنة ١٩٥٧ ص ١٤٤ .

ميله إلى الفكاهة أحيانا :

كان الجاحظ يميل إلى الفكاهة فى اكثر الأحيان ولذا رأيناه يحكى قصص البخلاء والمغرورين ، ويتندر بهم ويوشى كتبه بأحاديث من هذا القبيل كما سبق أن قلنا ولكنه فى بعض الأحيان كان يجنح إلى الأسى عندما يتحدث عن مرضه وعجزه وعندما يتحدث عن حاله وعدم ولد له يقول : دع عنك كل شيء . ما كان عليك أن يكون لى ولد يحيي ذكرى ويحـــوى ميراثى ، ولا أخرج من الدنيا بحسرتى ، ولا يأكله مراء يرصدنى وابن عم يحسدنى ، ولا يرتع فيه المعدلون(١) فى زمان أسوء ولا تصطنع فيه الرجال ، ويقضى به الذمام . فقد رأيت صنيعهم فى مال المفقود والمناسخة(٢) والوارث الضعيف ومن مات بغير وصيه .

جعلت فداك أن النفوس لا تجود لمولى الكلاله(٣) بما تجود به لأولاد الأصلاب ومامس تلك الأصلاب لأن الرحم الماسة والقرابة الملتصقة واللحمه الملتحمه وأن أملت التركة ونازعت إلى الموروث ، فمنها ما يأطرها(٤) ويثنيها ، ويحزنها ويبكيها ، ويحرك دمها ويستغزر دمعها . وقد يشفع المولد إلى أبيه حال أبية كانت من أبيه .

وابن العم الذى ليس بالبعيد فيحتك من جسده ، وليس بالقريب المحنو على رحمه وسببه الجاذب له إلى تمنى مماتى أمتن من سببه إلى تمنى بقائى ، وهو إلى الحال الموجبه للقسوة والغلظة أقرب منه إلى الحال الموجبة للرقة والعطف

---

(١) المعدلون : الذين يقيمون الأحكام .

(٢) التناسخ والمناسخة فى الميراث : موت ورثه بعد ورثه وأصل الميراث قائم لا يقسم .

(٣) الكلاله من القرابة : ماعدا الوالد والولد كذا فى هامش الكتاب وأرجح أن المقصود هنا : بنو العم الأباعد كما أورده معجم مقاييس اللغة فى كتاب الكاف لمناسبته السياق .

(٤) أطر العود إذا عطفه ، وأنأطر : انثنى ، والمراد مايقربه أساس البلاغة ج١

وليس ينصرك إذا نصرك ولا يحامى عليك لقرابته منك ، ولكن لعلمه بأنه متى خذلك حل به ضعفك، واجترأ بعد ضعفك عليه عدوه وفهو يريد بنصره من لا يجب عليه شكره ، ويقوى ضعف غيره بدفع الضعف عن نفسه .

جعلت فداك ، ما كان عليك من بنى صغير يكون لى ، ولاسيما ولست عندك ممن يدرك كسبه وأو تبلغ نصرته ، أو يعاين بره أو يؤمل أمتاعه .

وما كان عليك مع كبر سنى ، وضعف ركنى ، أن يكون لى ريحانة أشمها وثمرة أضمها (١) ...

وتلمس فى تلك السطور أسى الجاحظ وحسرته ، واضحة جلية وهو يذكر فقد ولد من صلبه ، يعدد محاسن وجوده ، وفضائله ، ويحصى مساوىء فقده ، وهى عديدة كما رأينا .

والجاحظ كاتب مبدع ، وفنان مبرز يعبر عن خوالج نفسه وخطرات شعوره فيحسن التعبير والأداء، سواء أكان أسلوبه متسما بالفكاهة والسخرية أم كان أسلوبا جادا يستخدم فيه البرهان ، ويجنح فيه إلى التعليل والبرهان، على ما يقتضيه الحال ويتطلبه المقام ؟

---

(١) رسائله جـ ١ ص ٢٥٥ رسالة فى الجد والهزل وهى رسالة وجهها إلى محمد ابن عبد الملك الزيات .

الخاتمـــة

هـكذا عرضت لبعض ما كتبه الجاحظ فى رسائله ، حيث أوردت جزءا من رسالته فى تفضيل النطق على الصمت وأبنت مناسبة الرسالة وسياقها ، وطابعه العام فى هذا النوع من رسائل الجدل والمناظرة ، وإحتجاجه لطرفى المناظرة ، ثم إنسياقه تماما فى هذه المناظرة إلى تفضيل النطق على الصمت ، إذ أن الكلام رسالته وهدفه المنشود .

ثم تحدثت عن الجاحظ فعرضت لحياته عرضا وافيا وأثبت مصادر ثقافته ووقفت عند منزلته وذكرت كلام بجيه وشانئيه على السواء واخترت من ذلك ماملت إليه مؤيدا بالدليل .

ثم تحدثت عن سمات أدبه وعددت منها عنايته بالألفاظ والأساليب ، ودقة رأيه واستقصاءه للمعانى ومزجه الجد بالهزل ، وأن الهزل عنده وسيلة إلى الجد المحض والحق الصراح .

وختمت البحث بالحديث عن شخصية الجاحظ كما بدت فى كتاباته ، وهى شخصية قوية معتدة بذاتها ، ذكية ، تميل إلى الفكاهة أحيانا ولكن الأسى والحزن يخيم عليها فى كثير من الأحايين .

والبحث فى صورته هذه ـ يتسم بالجدة تماما رغم كثرة ما كتب عن صاحبنا فى القديم وفى الحديث .

ثم هو يعتمد على كتبه . وسياق مؤلفاته ، وملابسات عصره مما يجعله صورة معبرة عن الكاتب الكبير الذى طالما فخر به العرب على إمتداد العصور .

قائمة المراجع

١ ـ أساس البلاغة : لجار الله الزمخشري ـ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٥ م الطبعة الثالثة .

٢ ـ البيان والتبيين للجاحظ : تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ طبعة الخانجي سنة ١٩٧٥ م .

٣ ـ تاريخ بغداد : للحافظ أبي بكر بن علي الخطيب البغدادي ـ طبعة دار الكتاب العربي بيروت .

٤ ـ الحيوان للجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون ـ طبعة مصطفى الحلبي طبعة ثانية سنة ١٩٦٥ م .

٥ ـ رسائل الجاحظ : تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ طبعة الخانجي الطبعة الأولى سنة ١٩٦٤ م .

٦ ـ سرح العيون : شرح رسالة ابن زيدون لابن نباته المصري ـ طبعة مصطفى الحلبي الأولى سنة ١٩٥٧ م .

٧ ـ ضحى الإسلام : لأحمد أمين ـ طبعة مكتبة النهضة المصرية الطبعة السابعة سنة ١٩٦٤ .

٨ ـ العصر العباسي الثاني : للدكتور شوقي ضعيف ـ طبعة دار المعارف طبعة ثالثة سنة ١٩٧٧ م .

٩ ـ الفن ومذاهبه في النثر العربي : للدكتور شوقي ضيف طبعة دار المعارف طبعة ثانية سنة ١٩٧٧ م .

١٠ ـ الفهرست لابن النديم : طبعة دار المعرفة ببيروت .

١١ ـ معجم الأدباء : لياقوت ـ مطبعة هندية سنة ١٩٣٠ .

١٢ ـ معجم مقاييس اللغة : لابن فارس تحقيق عبد السلام محمد هارون طبعة مصطفى الحلبي طبعة ثالثة سنة ١٩٨٠ .

١٣ ـ ميزان الاعتدال فى نقد الرجال للذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ طبعة عيسى الحلبي .

١٤ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : لابن خلكان تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد (رحمه الله) طبعة مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٨م

١٥ ـ لسان العرب لابن منظور : طبعة دار المعارف بدون تاريخ .

١٦ ـ لسان لابن حجر العسقلانى : المتوفى سنة ٨٥٢هـ منشورات مؤسسة الأعلمى للمطبوعات بيروت .